

الرسائل الحربية في وقعة صفين مقارنة تداولية

م. د. أحمد حسين حبال
مديرية تربية بغداد / الرصافة الثالثة
ah1975.h.h@gmail.com

١- الملخص:

نحاول في بحثنا هذا كشف القيم التداولية التي تضمنتها الرسائل الحربية التي جمعها ابن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ) في مدونته (وقعة صفين)، والتي جمع فيها ما استطاع من مراسلات ومناظرات شعرية ونثرية بين طرفي الصراع في وقعة صفين، في أثناء الحرب وقبلها، وتتصل الرسالة قيمتها التداولية من تضمنها لمقاصد المرسل ومراده، ومعرفة المرسل إليه بالمشتركات التخاطبية مع المرسل سواء أكانت معلومات مصاحبة لإنتاج الرسالة أم افتراضات مسبقة. الكلمات المفتاحية: الخطاب الحربي، الرسائل، الإخبار، الاستدلال.

Abstract

In this research, we try to uncover the deliberative values contained in the war messages collected by Ibn Muzahem al-Munqari (T 212H) in his blog (Sifin Post), in which he collected all his correspondence, poetry and prose during and before the war. The message receives its deliberative value from its contents for the purposes of the sender and its intended purpose, and the recipient's knowledge of the communication participants with the sender whether it is information accompanying the production of the message or presuppositions.

٢- تقديم المدونة:

تعد مدونة (وقعة صفين)، من أوائل المدونات التاريخية التي عُنت بتدوين وقائع حرب صفين التي دارت أحداثها في أرض صفين^١؛ بل هو أقدم نص معروف لدينا في هذه الوقعة، ويُعد ابن مزاحم في طبقة شيوخ شيوخ الطبري (ت ٣١٠هـ) (ابن مزاحم: ١٩٩٠م: ٦). وقد سجل معظم ما قيل في وقعة صفين التي حصلت بين جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) (استشهد ٤١هـ)، وجيش معاوية (ت ٦٠هـ)، والتي حدثت في شهر صفر سنة ٣٧ هـ، وقد بدأها ابن

^١ صفين موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس (الحموي: ١٩٩٣م: ٥ / ٩٨).

مزاحم بداية درامية ناجحة؛ إذ ذكر في الرواية الأولى وصول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى الكوفة قادماً من البصرة بعد انتهاء حرب الجمل ، قال: " لما قدم علي بن أبي طالب من البصرة إلى الكوفة يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة مضت من رجب سنة ست وثلاثين، وقد أعز الله نصره وأظهره على عدوه، ومعه أشراف الناس وأهل البصرة، استقبله أهل الكوفة وفيهم قراؤهم وأشرفهم، فدعوا له بالبركة" (ابن مزاحم: ١٩٩٠م: ٣).

وهذه البداية إيداناً منه أن كل ما سيكون بعدها خاص بوقعة صفين، وقد دلّ على هذا ما نقله من أبيات شعر لبشر بن منقذ (ت ٥٠هـ) المعروف بالأعور الشني الذي يقول فيها (ديوان الأعور الشني ١٩٩٩م: ١٧):

قل لهذا الإمام قد خبت الحر ب وتمت بذلك النعماء
وفرغنا من حرب من نقض العه د وبالشام حية صماء
تتفت السم ما لمن نهشته، فارمها قبل أن تعض، شفاء

فهذه الدعوة من أنصار الإمام لمهاجمة معاوية وطرده من كرسي الشام لم تكن اعتباطاً؛ وإنما سبقت لوجود قرائن عقلية مترابطة وأدلة بيّنة واضحة على أن معاوية قد دق طبول الحرب وأذن لها، ثم نلحظ أن الأحداث والوقائع في تلك الأيام كانت دليلاً على أن الحرب ليس لها إلا اللقاء وتضرم نارها، ولاسيما أنّ شراراتها قد بدأت حينما أرسل أمير المؤمنين رسالة إلى معاوية يأمره فيها بترك ولاية الشام والتحج عن إمارتها، ومما جاء فيها قوله: "أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد ... فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة رده إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ... فإن أحب الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء . فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٢٩)، هذا الأمر صار إعلاناً رسمياً بانطلاق الحرب .

أخذت المقدمة الكاشفة لمقامات المعركة مساحة كافية لاستعراض البيئة التي مهدت للوقعة والظروف التي سبقت اللقاء الدامي بين الجيشين، فكان الغرض من هذا التقديم هو تبيان البيئة الاجتماعية والسياسية التي سبقت حرب صفين، والمقامات التي أنتجتها، وهي بيئة سيفاد منها قارئ الكتاب لمعرفة كثير من أحداث الوقعة، وهي كذا مفيدة للمنقري في إضفاء سمة المنهجية على مدونته.

٣- عنوان الوقعة:

تكتسب الأحداث والوقائع التاريخية تسمياتها من الظروف التي تضمنتها، فعام الفيل مثلاً اكتسب هذا الاسم من هجوم أبرهة الحبشي على مكة المكرمة مصحوباً بالفيلة عام (٥٥٢م)، وقد اكتسبت الوقعة التي نحن بصدها تسميتها من الأرض التي حدثت فيها وقائع الحرب، وقد تسالمت على هذا الاسم المدونات التي سجلت وقائع هذه الحرب مثل: تاريخ اليعقوبي (اليعقوبي: ١٨٨/٢)، تاريخ الطبري (١٩٦٧م: ٤٧/٥)، الكامل في التاريخ (ابن الأثير: ١٩٨٧: ١٦١/٣).

ولكننا حينما نطالع مدونة المنقري نكتشف اسماً آخر لهذه الوقعة، فذاكرة المشاركين لم تكن خالية من المعرفة القبلية لهذه الأحداث، فهي حرب تحمل دلالات ذهنية عند الإمام علي (عليه السلام) وأصحابه؛ لأنها ترجعهم إلى حديث الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقد سُميت هذه الحرب قبل أن تكون في دائرة الوجود، وقد أعلن هذا الاسم عمار بن ياسر (ت ٣٧هـ) حينما قال لأبي الأعور: " أمرني رسول الله صلى الله عليه أن أقاتل الناكثين، وقد فعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين، فأنتم هم. وأما المارقون فما أدري أدركهم أم لا " (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٣٣٨) ، وهذا الاسم (القاسطين) ينظر إليه من جهتين، الأولى: أنه وسم للجماعة المناوئة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، والأخرى: أنه وسم أطلق من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يمكن إزالته منهم مطلقاً، فلا يحتمل أن يتغير حالهم من القسط إلى العدالة والإيمان. فالإمام يمتلك عنواناً لحربه، على العكس من الجهة المقابلة (معاوية وجيشه) الذين رفعوا شعاراً تأويلياً القصد منه إيهام السامعين بأحقية مطالبهم وأنهم خارجون لهذه الحرب طلباً لثأر خليفتهم المغدور (عثمان بن عفان) (ت ٣٥هـ). وتعكس عملية العنونة في جيش الإمام علي (عليه السلام) ثباتاً في الموقف الحق يتأسس على موقف عقائدي يرسم به خطأ واضحاً لحربه وموقفاً لا يحيد عنه مطلقاً؛ وهو موقف لا يستطيع أن يُصنع صناعة أو تصنعاً، بل لابد أن ينطلق من حقيقة راسخة في ذهن الإنسان. يكشف هذا حقيقة ارتباط أمير المؤمنين بخط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومدى تشابههما، ويُظهر مدى ابتعاد معاوية وأصحابه عن الخط الرسالي؛ فخلو المنظومة المعرفية والدينية من عنوان اسلامي ولجوؤها إلى عنوان تأويلي يؤكد أنها جماعة تنتمي إلى إسلام من نوع آخر إسلام يستمد فكره من الإطار الذي رسمه له معاوية، أي: إنه إسلام سلطة.

وربما يتبين السبب التخاطبي في هذا الإخبار من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإيضاح مقاصد الأفعال أمام المتلقي والاعتماد على الدلالات الحقيقية للألفاظ، كما تعجز ذهنية المتلقي أياً كان عن فعل التأويل والدخول في دائرة التيه اللامبرر، وفي هذا قرائن جلية " على تعاضل اللغة

والسياسة ما يبونها منزلة الصدارة في استكشاف الخفايا المخاتلة التي تصوغ مكر الخطاب. تلك الظاهرة ذات وجهين: الأول أن فعل التسمية أصبح يتجول بين زمنين: ما قبل الحدث وما بعده، فليس مفروغاً منه ألا يولد الاسم إلا بعد ولادة من تراد تسميته، بل قد يتم اتخاذ القرار بشأن إحداث الصراع أو إشعال فتيل الحرب، ويتم في الحيز الزمني نفسه اتخاذ قرار آخر هو ابتكار اسم يتم إطلاقه على ذلك الصراع أو تلك الحرب، فينشأ اصطلاح مركب" (المسدي: ٢٠٠٧: ٢٤٥)، وكذا تؤدي عملية إطلاق الاسم على الحرب تأثيراً نفسياً على المشاركين فيها، فلما قال الإمام علي عليه السلام: " أمرتُ بقتال ثلاثة، الناكثين والقاسطين والمارقين، أما القاسطون فأهل الشام، وأما الناكثون فأهل الجمل، وأما المارقون فأهل النهروان يعني الحرورية"^٢ (الجويني: ١٩٨٠: ١٢٥/١) ، ارتفعت الروح المعنوية لدى جيشه؛ لأنهم على الحق بشهادة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم)، في حين يرتد هذا الفعل ارتداداً عكسياً على أصحاب معاوية.

وما دمنا في دائرة الكلام عن العنوان، فنلاحظ أن المشهد الحربي قد وسم الجيشين بأسماء تبعاً للجهة التي خرجوا منها، فجيش الإمام الذي خرج من العراق سمي جيش أهل العراق والجيش القادم من الشام سمي جيش أهل الشام، وهذا يوضح أثر المكان في إطلاق التسمية في هذه المعارك فالمعركة هي صفة نسبة للأرض التي حدثت فيها، وهو أسلوب قديم استخدم في معارك الإسلام الأولى مع الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) فنجد معركة أحد نسبة للجبل، ومعركة تبوك نسبة للمدينة التي وقعت الحرب فيها.

٤- البنية المعجمية للرسائل:

مراجعة المعجم العربي لمعرفة الأصل اللغوي لكلمة (رسالة) نجد فيه أن "الرَّاءُ وَالسَّيْنُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَرِّدٌ مُنْقَاسٌ، يَدُلُّ عَلَى الْإِنْبِعَاثِ وَالْإِمْتِدَادِ" (ابن فارس: ١٩٧٩: ٢/ ٣٩٢). إذن الجذر اللغوي للكلمة يستوجب الانتقال المكاني أو الزمني، وهو انتقال ظرفي لا بد منه حتى يؤدي المظروف (الرسالة) وظيفته، وقد تجسد هذا المعنى في قول الفيومي (ت ٧٧٠ هـ) "وَأَرْسَلْتُ رَسُولًا بَعَثْتُهُ بِرِسَالَةٍ يُؤَدِّيهَا ... وَتَرَأَسَلِ الْقَوْمُ أَرْسَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ رَسُولًا أَوْ رِسَالَةً" (الفيومي : ١/ ٢٢٦).

^٢ مصطلح يطلق للدلالة على فرقة الخوارج ، نسبة إلى المكان الذي كانوا قد اعتزلوا فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وفارقوا جيشه بعد قبوله مسألة التحكيم بينه وبين معاوية بن ابي سفيان في موقعة صفين ، وكان ذلك الموضع يقال له " حروراء " فسمو بالحرورية ، وقد قاتلهم أمير المؤمنين وقضى عليهم في موقعة النهروان. ينظر: البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م: ٣٢٣/٧.

- وتباين تناول المعجم العربي المعاصر عن تناول المعجم القديم، فقد اتسعت موارد استعمال الكلمة (الرسالة) فصارت تدل على معانٍ متعددة، منها: (عمر: ٢٠٠٨م: ١٥٦)
- ١- خطاب حرر رسالة- بعث برسالة مسجلة- رسالة مُشَفَّرَة.
 - ٢- كتابٌ موجز يشتمل على قليل من المسائل تكون ذات موضوع واحد، نحو: (رسالة ابن سينا في أسباب حدوث الحروف، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري).
 - ٣- وسيلة اتصال تنقل بالكلمات أو الإشارات أو بوسيلة أخرى من شخصٍ ما أو محطة أو من مجموعة لأخرى.
 - ٤- الرسالة الإخبارية: تقرير مطبوع يزود بالأخبار والمعلومات ذات الأهمية لجماعة معينة.
 - ٥- بحث مُبتكر يقدم للحصول على شهادة عليا وتسمى في بعض البلاد العربية أطروحة "رسالة ماجستير/ دكتوراه.
- وعملية الارسال هذه تستدعي بالضرورة مرسلًا ومرسلًا إليه، وهما المتخاطبان في الأساس وما الرسالة إلا واسطة للتواصل والتخاطب، وهي على هذا حدث تخاطبي من مطلعها في صيغته الثابتة (من إلى)، وتظل حاوية مقاصد المرسل ومراده، وتتباين هذه المرادات بحسب الغرض الذي من أجله سيقف الرسالة، فهي مرة تكون حاملة مضامين إخبارية، وأخرى تحمل قصداً إقناعياً تأثيرياً، وهكذا.
- ومما يلحظ أن مدونة المنقري لم تعنون هذه الرسائل بعنوان (رسالة)، بل استعمل المنقري مصطلح (كتاب)، فيقول مثلاً: كتاب علي أمير المؤمنين إلى عماله.
- وقد نظر الباحثون إلى الرسائل باعتبارها جنساً أدبياً حاوياً قيماً تعبيرية إبداعية، وصنفوها تبعاً لموضوعها ومضامينها، فكانت على النحو الآتي: (د. عبد العالي قادا: ٢٠١٥: ٦٧- ٦٨)
- ١- الرسائل السياسيّة (الديوانيّة، السلطانيّة)، وهي الرسائل ذات المضامين الرسميّة الصادرة من الحاكم (الخليفة، الأمير، الوالي)، وتناقش قضايا تهتم بشؤون الدولة والتنظيم الإداري لها، والغرض منها فرض سلطة الحاكم على أبناء دولته.
 - ٢- الرسائل الاجتماعيّة (الاخوانيّة، المكاتبات، المراجعات)، وهي رسائل ذات مضامين مجتمعيّة وتعرض لشؤون الاصدقاء والإخوان ومراسلاتهم ذات الموضوعات الخاصة بهم، والغرض منها التواصل بين الإخوان والأصدقاء .
 - ٣- الرسائل الدينيّة، هي الرسائل ذات المضامين الدينيّة، وتناقش قضايا دينيّة كالالتزام بالصلاة والصوم، والتحلّي بالأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والغرض منها وعظي تربوي،

وكل ما من شأنه أن ينشر التعاليم الدينية ويؤدي إلى تطبيقها، ودائماً ما تصدر هذه الرسائل من الفقهاء .

٤- الرسائل الأدبية، هي الرسائل ذات المضامين الأدبية، وتناقش موضوعاً أدبياً انشائياً والغرض منها أدبي، وفي الغالب يكون امتاعياً.

وهذا التقسيم لا يمتلك الوصف القطعي الجازم؛ أي: إنه في بعض الرسائل قد يتداخل السياسي مع ما هو ديني، أو مع الرسائل الاجتماعية فهذه "التصنيفات لا تعني الحرفية في الدلالة فالسياسي أعم من الديواني، والاجتماعي والديني قد تكون لهما أبعاد سياسية، أما صفة الأدبية فلا يمكن فصلها بأي حال من الأحوال عن أي نوع من الأنواع السابقة" (د.عبد العالي قادا: ٢٠١٥: ٦٩).

٥- السمات التداولية للرسائل:

لقد اعتمدت تقسيمات الرسائل على معايير نابغة من البنية الموضوعية لها؛ فنظر (التقسيم) إلى الأغراض، والغايات، والموضوعات. وتبعاً لهذا نجد أنّ الرسائل الحربية هي قسمٌ خاص يغير الأقسام الأخرى، وقد تحلّى هذا القسم بسمات تداولية أظهرت القيمة التواصلية والتخاطبية للرسائل الحربية، وأبرز هذه السمات هي:

١- الغرض: إن الغرض الذي من أجله كتبت هذه الرسالة هو إقناع المرسل إليه بتغيير سلوكه من ذلك ما ورد في رسالة أمير المؤمنين لمعاوية، إذ قال: "ألا واني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه، وحقن دماء هذه الأمة. فإن قبلتم أصبتم رشدكم، واهتديتم لحظكم. وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة فلن تزدادوا من الله إلا بعداً، ولن يزداد الرب عليكم إلا سُخْطاً" (ابن مزاحم: ١٥١). فهذه الدعوة هي محاولة اقناعية موجهة للمتلقّي معاوية؛ لتغيير سلوكه والعدول عن أفعاله السابقة والدخول مع أمر الجماعة التي اختارت أمير المؤمنين، وهذه المحاولة لا تستلزم التحقق بالضرورة، فالافتناع لا يتوقف على دعوة المتكلم أو العمل على التغيير؛ بل يتوقف على رغبة المتلقّي بالتغيير ومدى استعداده لنجاح الفعل الإقناعي.

ولم يغيب غرض الإبلاغ عن هذه الرسائل كما في قول أمير المؤمنين في رسالته إلى معاوية ابن أبي سفيان؛ إذ قال: "إن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً، أقربها من رسول الله صلى الله عليه، وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً وأفضلها جهاداً" (ابن مزاحم: ١٥١)، فهذا النص يحمل مضامين إبلاغية يبين فيها أمير المؤمنين صفات ولاة الأمر الذين يحق لهم قيادة الأمة، وعليه فليس من حق معاوية وأمثاله التصدي لهذا الأمر.

وقد تضمنت بعض هذه الرسائل غرضاً دعوياً، إذ كان الإمام علي (عليه السلام) يبعث رسائله إلى العمال على الأمصار الإسلامية، طالباً منهم مبايعته، وهذه الرسائل لم تكن حريية مباشرة؛ بل هي مقدمة للحرب، يجمع فيها أمير المؤمنين عامليه ويكتشف من منهم معه، ومن هو مخالف لأمره، ولا سيما أنها أرسلت بعد وقعة الجمل في البصرة، ومن هذه الرسائل ما بعثه إلى الأشعث بن قيس الكندي عامل أدريجان، وقد ورد فيها: "أما بعد فلولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس ولعل أمرك يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله ... وأنت من خزان الله عليه حتى تسلمه إلي ولعلي أن لا أكون شر ولا تك لك إن استقمت ولا قوة إلا بالله" (ابن مزاحم: ٢٠-٢١)

٢- المضمون: تحتوي الرسائل الحربية على مضامين اقناعية ارشادية كالتي عرفناها في النقطة (١)، وهناك كذلك مضامين استقرائية كالهجوم على المرسل إليه، أو الوعيد، والتعديد كما في جواب معاوية عن رسالة أمير المؤمنين أنفة الذكر، إذ اقتبس بيت من قصيدة عمرو بن الأهتم: (ابن الأهتم: ٧٩: ١٩٨٤).

لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابٌ غَيْرَ طَعْنِ الْكَلَى وَضَرْبِ الرِّقَابِ

فهو في اقتباسه هذا كسر فعل الإقناع ورفض الاقتناع، راداً بهجوم قولي يعكس تبيينه لنية الحرب وإشعاله دونما عناية في مدياتها وما سينتج عنها.

٣- الموضوع: يظل موضوع الحرب القائمة بين الطرفين هو المسيطر على الجو العام للرسالة، فكل محتوياتها تناقش ما يرتبط بأرض المعركة، نحو: حق المرسل بالسيطرة على زمام الأمور، ووجوب انصياع المرسل إليه كما في ما تقدم، وقد نلمح موضوعاً آخر كما في رسالة معاوية للإمام علي التي يطلب منه فيها التوقف عن القتال وجعل الأمور على ما هي عليه، فقال: "وإننا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي. وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك علي، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٤٧١)

٤- قد يبتعد أحياناً مضمون الرسالة عن الحرب والمعركة، ويناقش قضايا دينية أخلاقية كرسالة الإمام في بداية الأحداث قبل أن تقوم الوقعة أو يحتدم الجيشان، إذ بعث برسالة إلى معاوية قال فيها: "إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردهو إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى. ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك،

لتجدني أبرا الناس من دم عثمان، ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه، إلا أن تتجنني، فتجن ما بدا لك! والسلام" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٢٨)، فهذه الحجج العقلية المقدمة من الإمام تفرض على معاوية وجيشه النزول عند إرادة أمير المؤمنين؛ لأن الخروج عليه سيلحقه فساد وإفساد لشؤون الأمة. ومع هذا يظل الوصف الحربي ملاصقاً لها؛ لأنها تُعد مقدمة للحرب وعاملاً مؤثراً في حركتها.

٦ - إفادة المتكلم من سياقات المقام في إيصال مقاصده:

يختار المتكلم البنية اللفظية الصادرة منه تبعاً للمعجم الذهني الذي يختزنه؛ وتظهر هذه البنية معبرة عن انطباعاته وقناعاته اتجاه قضايا المجتمع الذي يعيشه، ولا يتحدد السياق الذي نحن بصدد عرضه بالزمان أو المكان الذي قيل فيه الكلام؛ بل هو "جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يُعتبر المتكلم جزءاً منه، كما يُعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم، وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي، ليشمل كل جوانب عملية الاتصال من الإنسان والمجتمع والتاريخ والجغرافية والغايات والمقاصد". (حسان: ١٩٨٠: ٣٣٩)

وللسياق أثر كبير في انجاح فعل التواصل بين المرسل والمرسل إليه، ولا يمكن اختزال الرسالة من ظروف نشأتها المحيطة بها؛ وأهمية السياق في صياغة القول جعلت جاكوبسون يعده من العوامل المكونة لكل سيرورة لسانية ولكل فعل تواصلية لفظي، فهو يرى أن "المرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة، فإنها تقتضي -بادئ ذي بدء- سياقاً تحيل عليه (وهو ما يدعى أيضاً "مرجع" باصطلاح غامض نسبياً) سياقاً قابلاً لأن يدركه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظياً أو قابلاً لأن يكون كذلك؛ وتقتضي الرسالة، بعد ذلك سناً مشتركاً، كلياً أو جزئياً، بين المرسل والمرسل إليه (أو بعبارة أخرى بين المسنن ومفكك سنن الرسالة) وتقتضي الرسالة، أخيراً، اتصالاً، أي قناة فيزيقية وربطاً نفسياً بين المرسل والمرسل إليه. اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه" (جاكوبسون: ١٩٨٨م: ٢٧)، وقد وضع مخطوطته الشهيرة التي وضحت العناصر التي لا يستغنى عنها في التواصل اللفظي، وهي على النحو الآتي:

سياق

مرسل ----- رسالة ----- مرسل إليه

اتصال

سنن

وبهذا الفهم الواسع للموقف نجد أن أصحاب المراسلات الحربية أيدوا آراءهم ومواقفهم بجملة إحالات على مواقف زمنية، واجتماعية، وتاريخية أفادوا منها في بيان مقاصدهم وفي إيصال غايات كتاباتهم إلى الآخر، من هذا ما ورد في رسالة الإمام علي (عليه السلام) إلى معاوية؛ إذ قال: " لعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى" (ابن مزاحم: ٢٩: ١٩٩٠).

فهذا المقطع من رسالة الإمام قد تضمن ذكراً لسياقات تاريخية، فقد ذكر الإمام حادثتين؛ الأولى: هي مقتل عثمان بن عفان، وهي الحادثة التي سيتكرر ذكرها كثيراً باختلاف زاوية النظر إليها، وزاوية النظر التي اتخذها أمير المؤمنين هي براءته من دم عثمان، وقصده من هذا العرض هو تدعيم موقفه الشخصي، وموقف جبهته، فالأمير لا بد أن يكون سليم الجانب من أي شائبة، ولا يمكن أن يكون عرضة للاتهام وموقعاً لسهام الشبهة. والحادثة الأخرى التي عرضها هي (الطلاق)، والقصد منه بيان حقيقة المقابل (معاوية)، والكشف عن ابطال حكومته الآن ومستقبلاً، وهو فيه إحالة على الحدث التاريخي المعروف؛ إذ حينما فتح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة عنوة " خطب على باب الكعبة ثم قال بعد كلام: " يا معشر قريش! ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا: خيراً. أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء... وكان فيهم معاوية ابن أبي سفيان" (ابن الأثير: ١٩٨٧: ١ / ٣٣٢)، والغرض من إيراد هذه الحادثة شاهداً على عدم أحقية معاوية بالخلافة، ابطال دعاوى معاوية، وكشف زيغها أمام الجيشين. وفي اختيار هذين الحادثين اللذين شهدهما كثير من الناس من أهل مكة أو المدينة أو حتى الشام الذين كانوا حاضرين في ذلك الوقت، فيه عناية بالعقل الجمعي للمشاركين في الحرب، وهو بهذا اعتنى بالمتلقي بعدم اكتفائه أثناء كلامه بالسرد، لأن "المرويات تحمل في طيها معلومات تظل تنقصها مكملاتها مما يحمله السياق المقامي من قرائن تفيد في جلاء المعنى وشفاء الصورة الدلالية." (الشهري: ٢٠٠٣: ٣٠٤).

وقد مثل قتل عثمان علامة فارقة في رسائل معاوية، حتى ذهب مثلاً فيقال للأمر الذي يُدعى له باطلاً: (قميص عثمان)، ولكن زاوية النظر اختلفت عن تلك التي عرفناها عند أمير المؤمنين، فحينما كان يبعد التهمة عنه، حاول معاوية اثباتها مستعملاً وسائله كافة، التي منها تكرر الدعوة في كل مكان وزمان، فأخذ يبعث رجاله إلى قبائل العرب طالباً منهم الدعم عارضاً القضية عرض المسلمات، وقال في إحدى رسائله إلى أصحابه مبيناً سبب خروجه على أمير المؤمنين: "إنما نطلب بدمه [يقصد عثمان] حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله. فإن دفعهم علي إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٦٣).

وجعلها معاوية محور خروجه والعصا التي اتكأ عليها. وهو أمر تباين فهمه عند جمهور المتحاربين، الأمر الذي جعل من الفعل اللغويّ (نطلب)، فعلاً فاشلاً لم يحقق قدرته الإنجازية الكاملة؛ لأن أبرز شرط وضعه أوستن لتحقيق إنجازية الفعل هو "يجب في كل حالة مفترضة أن يكون الأشخاص المعنيون والملابسات المخصوصة جميعاً على وفق المناسبة والملاءمة حتى نستطيع أن نتمسك بذلك النهج المحتكم إليه في إنجاز الأفعال اللغوية بنجاح" (أوستن: ١٩٩١: ٤٩) .

ومما يلحظ على النص السابق أنه يذكر كلمة الشورى، والتي يعاد ذكرها عند أمير المؤمنين، ولكنّ غرض الذكر يتباين هنا؛ فقال: " أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر ونظيراك في الاسلام وخفت (معهما) لذلك أم المؤمنين فلا تكره ما رضوا ولا ترد ما قبلوا فإنما نريد أن نردها شورى بين المسلمين". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٧٥)؛ لأنه أراد التعريض بمعاوية والتجريح به واستصغار شأنه.

ويبدو أن ذكر معاوية لحادثة تاريخية لم يكن طرفاً فيها ولم يحضرها هو محاولة منه لإقناع المتلقي السهل أي التابع له المطيع لأمره، وهي محاولة غير نافعة لإقناع المتلقي الصعب أي غير المطيع له والمخالف لأمره، ومرة أخرى ينتقل معاوية الى خرق جدار النجاح ويعدل بالفعل اللغويّ الى الفشل من خلال تأويله لحوادث تاريخية تأويلاً ينسجم مع مراده من عرضها، وهذا ما لا ينسجم مع الخطاب الإقناعي؛ لأننا إذا رمنا الإقناع فعلياً البحث عن كل الأوضاع والظروف التي قيلت فيها العبارة، وأن تكون هذه الظروف ملائمة مع الواقع الخارجي وإدراك المتلقي، ولذا نجد أن بعض صحابة رسول الله أحسوا بمقصد كلامه وغايته؛ فردوا دعواه عليه، فقد أبطل سعد بن أبي وقاص (ت ٥٥هـ)، حجته في الاستناد على هذه الشورى قائلاً: "أما بعد فإن عمر لم يُدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة، فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه غير أن علياً كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه. وهذا أمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٧٥)

وبالإضافة إلى هذه السياقات حاول طرفا الصراع الاستناد على حال المسلمين؛ لتدعيم دعواهم وليبيان حالهم وموضعهم في البيئة الاجتماعية والدينية، فهذا معاوية في كتابه لأمر المؤمنين يعرض أحوال المسلمين بعد وفاة النبي قائلاً: " إنَّ الله اصطفى محمداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه، واجتبي له من المسلمين أعواناً أيده الله بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم في إسلامه وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة من بعده، وخليفة خليفته، والثالث الخليفة المظلوم عثمان" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٨٦-٨٧)، وهذا العرض لأحوال المسلمين خاضع لغايات المتكلم وبحسب رغبته في كسب الجمهور المتلقي، ممّا استدعى أمير

المؤمنين لرد هذا القول عليه ورفضه والكشف عن أحوال المسلمين بعد وفاته كما وقعت وليست كما ادعى معاوية، إذ قال: " إن محمداً صلى الله عليه وآله لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كنا أهل البيت أول من آمن به، وصدق بما جاء به... فأما من أسلم من قريش بعد، فإنهم مما نحن فيه أخصاء، فمنهم حليف ممنوع أو ذو عشيرة تدافع عنه، فلا يبيغيه أحد بمثل ما بغانا به قومنا من التلّف" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٩٠-٩١)، بهذا ردّ أمير المؤمنين قول معاوية مستنداً إلى أحوال أهل البيت الذين هم أولى بالنبي من غيرهم، فهم من تحمل الأذى وصبر على البلاء، وعزلوا من مخالطة الناس، وما هذا إلا لأنهم أهله وخلفاؤه.

ولم يكن التناقض الحاضر بين الصورتين إلا بسبب التناقض في انتماءات المتكلمين، فكل منهم يخضع عباراته لانتماءاته الدينية والاجتماعية.

٧- أثر اعتقادات المتكلم في صياغة التركيب:

تعد الغايات والمقاصد التخاطبية (إبلاغية وإفهامية) أساساً مهماً في تصدير المتكلم كلامه؛ وهذه الغايات تتأطر بدوافع نفسية يحاول فيها المتكلم إظهار عقيدته ومبنياته الفكرية وما يؤمن به فالنص "يتأسس على مقاصد توظف فيها اشارات استجابة لنسق يتطلب بناء الانسجام من جهات العلاقات الخفية التي تسهم في تنظيمه، ويؤلف عالمه المتخيل تأليفاً يكفل وحي الدلالات" (الشديدي: ٢٠١١م: ١١٨).

وهذه المقاصد تباينت بحسب تباين معتقدات المتكلمين فاتخذت صوراً يمكن اجمالها بحالات "الاعتقاد والخوف والأمل والحب والكراهية والبغض والميل والنفور والشك والتعجب والابتهاج والعجب والحزن والقلق والغرور والندم والأسى والأسف والشعور بالإثم والفرح والغضب والارتباك والقبول والصفح والخصومة والنزوع والتوقع والاعجاب والازدراء والاحترام والسخط والقصد والتمني والرغبة والتصور والتخيل والشهوة والاحتقار والحقد والرعب والسرور والاشمئزاز والطموح واللهو وخيبة الأمل" (صلاح إسماعيل: ٢٠٠٧م: ٨٥)، وقد حضرت أغلب هذه المقاصد في الرسائل قيد الاجراء، فالمتراسلان كثيراً ما كانا يصيغان تراكيبيهم اللفظية؛ تبعاً لعقيدتهم ولما ينتجه الموقف التخاطبي من دوافع نفسية تفرض على المتكلم صياغة خاصة للتركيب واختياراً معيناً لألفاظه، من هذا ما ورد في رسالة أمير المؤمنين إلى معاوية: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام على من اتبع الهدى، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١٠٨). إنّ وسم أمير المؤمنين بأنه عبد الله دلالة على ما ارتكز في نفسه من قيم دينية

اعتقادية؛ فالأساس عنده عبادة الله والالتزام بأحكامه وهو إشارة إلى أنّ العلاقة بين الناس في نظره تُبنى على أساس العلاقة بالله، فقد ربط الفعل اللغويّ (أحمد الله) الذي أنجزه بالواقع النفسيّ والعقديّ له، وهذا ما ألمح إليه الباحثون اللسانيون في ما بعد؛ فقد قرر فندريس أن كل فعل لغويّ يحمل أثراً انفعالياً، فهو عنده عبارة عن تعبير خاص ينتج انفعالاً معيناً، فلا يعطي شخص ما المعلومات ذاتها بطريقة واحدة إطلاقاً. (ميلكايفيتش: ٢٠٠٠م: ١٣٢)

ومما يلحظ على صيغة السلام التي خاطب بها الإمام علي (عليه السلام) معاوية بن أبي سفيان، أنه كان دائماً ما يقول (سلام) أو (السلام)، وقد تغيرت هذه الصيغة مرة واحدة في الرسائل بينهما، فقال (سلام عليكم)، والسبب في هذه المرة أنه وجه كلامه إلى (معاوية وإلى من قبله من قريش)، أضف إلى هذا ما قرره أمير المؤمنين من خروج معاوية عن الهداية ودخوله في دائرة الضلال الشيطاني، فهو لا يؤمن بإيمانه وتقواه وورعه لذا ختم رسالته بقوله السلام على من اتبع الهدى وفيه تناص مع قوله تعالى ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه: ٤٧) وهو القول الذي صدر من موسى إلى فرعون بأمر الله، فاختر الإمام كلماته بحسب الجو العام الذي صيغت من أجله؛ لأن "الكلمات كالماء الذي يخضع لونه للون انائه، وإنما هي كالحرباء التي تتلون بلون المكان الذي تحل فيه؛ أي إن الكلمة أشبه بالحرباء تمتلك امكانات معينة، كل منها يبرز في موضعه المناسب، وليست كالماء الذي لا يملك شيئاً من تلك الامكانات وإنما يخضع لما يفرض عليه من الخارج". (يونس: ٢٠٠٧م: ١٢٤)

وكذلك يتبين هذا الأثر في قول الإمام علي (عليه السلام) لمعاوية بن أبي سفيان: "ومتى كنتم يا معاوية ساسة للرعية، أو ولاية لأمر هذه الأمة بغير قدم حسن ولا شرف سابق على قومكم". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١٠٩) فتركيب الاستفهام المجازي عكس اعتقاد المتكلم بأن معاوية ليس أهلاً لسياسة الرعية ولا يحق له أن يكون من أهل الحل والعقد؛ لما حمله تأريخه الشخصي وتأريخ عائلته من خروج عن أوامر الدين ونواهيه.

وتظل عقيدة أمير المؤمنين هي الوازع لتكوين عباراته وألفاظه، ويتضح هذا في مقارنته بين اختيار الناس والاختيار الإلهي، وأنه لا يحق للناس الوقوف بوجه الاختيار أو الاعتراض عليه فقال: "واعلم أن هذا الأمر لو كان إلى الناس أو بأيديهم لحسدونا وامتتوا به علينا ولكنه قضاء ممن امتن به علينا على لسان نبيه الصادق المصدق" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١١٠)، ولا تنتهي هذه الرسالة إلا وهو يؤكد على انتمائه للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإيمانه به فهو عنده الصادق المصدق، وفي

هذا الوسم للنبي احوالة ضمونية الى الوعد الذي وعده النبي لأمر المؤمنين أن سيقاقل معاوية وجماعته وقد مر ذكره.

وقال معاوية ابن أبي سفيان جواباً عن كتاب أمير المؤمنين: " أما بعد فدع الحسد فإنك طالما لم تنتفع به، ولا تقسد سابقه قدمك بشره نخوتك". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١١٠) يحاول معاوية في رسالته هذه أن يلتبس لباساً غير لباسه، ويتقمص شخصية أخرى، إذ تحول إلى إنسان ناصح واعظ يحاول جهده لثني أمير المؤمنين عن مواقفه، ونستطيع تكشف دواخل النفس من ظواهر الكلام، ومحاوله التظاهر بمظهر شخصية أخرى أو لبس لبوسها والتصرف على هيأتها فتحوله إلى إنسان صالح أمر بالمعروف ناه عن المنكر، ولكن هذا التلون تكشفه طيات اللسان؛ لأن "القول دليل على ما في الذهن وما في الذهن صورة لما في الوجود مطابقة له، ولو لم يكن وجود في الأعيان لم تنطبق صورة في الأذهان ولم يشعر به الإنسان ولم يعبر به باللسان". (الغزالي: ١٩٦٨: ١٠-١١) فوسمه أمير المؤمنين بالحسد، وهو عالم كما الناس أن هذه الصفة بعيدة جداً عنه، جعل المتلقي يتكشف أن الحقد والبغض هو الذي يختار الألفاظ وهو ما صنفه جبرار جينيت ضمن فرضيتين؛ الأولى: فرضية الكشف الإرادي عن طريق فلتات اللسان الكاشفة لشخصية لا واعية للمتكلم، والفرضية الثانية: هي تظاهر المتكلم تظاهراً إرادياً بشخصية مختلفة عن شخصيته الحقيقية. (جينيت: ٢٠٠٠: ١٨٨)

وإذا رمنا أن نترك المراسلة بين القيادة وننتقل الى المراسلة بين الجنود فنجد أن رسالة محمد بن أبي بكر (ت ٣٨هـ)، أكثر رسالة يظهر فيها تأثير العقيدة في صياغة التركيب فمدليل الكلمات تبرز عقيدة المتكلم وتتبع عن متبنياته؛ فهو قد صاغ عباراته تبعاً لمعتقدده وما رسخ في ذهنه ونفسه، ومما قال في رسالته: "من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي بن صخر. سلام على أهل طاعة الله ممن هو مسلم لأهل ولاية الله" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١١٨). تبرز اللغة الانفعالية واضحة جلية في وصف المتكلم المخاطب بأنه غاوي أولاً، وهي الصفة التي اعتقدها في مخاطبه؛ فمحمد مؤمن بأن معاوية إنسان بعيد عن الهداية مناوي للحق؛ ولذا فلا يمكن أن يكون مثله في دائرة الهداية أو مستحقاً لها، أو من الممكن أن تحيط به عناية الله.

وقد شحن المتكلم ألفاظه بطاقة انفعالية عالية؛ وذلك حينما استعمل اسم والد معاوية الصريح (صخر)، ولم يكني، علماً أن كناية أبي سفيان هي التي تعارف عليها في النداء لا الاسم الصريح وهو الأمر الذي عليه عامة العرب، حتى من تخاصم مع معاوية كأمر المؤمنين، ولكن لما امتلأت نفس محمد غيظاً وبغضاً على معاوية رفض الكناية وعدل إلى التصريح وهو تعريض ضمني باستحقاق هذا النسب، وهو ما كان يكرره دائماً وفي أي مناسبة أو مقام يُذكر فيه معاوية وأهله، وبالمقابل كان

دائماً ما يمدح أمير المؤمنين ويفتخر أنه من مربيه والمقربين له من هذا قوله: "فلم يبرح مبتدلاً لنفسه في ساعات الأزل ومقامات الروح. حتى برز سابقاً لا نظير له في جهاده، ولا مقارب له في فعله، وقد رأيتك تساميه وأنت أنت. وهو هو المبرز السابق في كل خير. أول الناس اسلاماً، وأصدق الناس نية، وأطيب الناس ذرية، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم، وأنت اللعين ابن اللعين ... فكيف - يا لك الويل- تعدل نفسك بعلي". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١١٠-١١٨). إن النظر في استعمال التكرار للضمير المنفصل أنت أنت وهو هو على ما فيه من قوة احالية، يخلق جواً من التقابل المعنوي بين الاثنين، وقد جمع في تكرار هذا الضمير صورتين متقابلتين مبالغ فيهما الأولى صورة معاوية المستحقرة الدينية، وكأنني أراه -محمد بن أبي بكر- قد قطب حاجبيه واشمأز حال نطقه بالضمير المؤكد، والأخرى صورة أمير المؤمنين الرفيعة الشأن التي يوظفها الصدق والوفاء والإخلاص والالتزام بالقيم الدينية وهما صورتان غير قابلتين للتساوي أو التعادل.

٨- مقاصد الإخبار والاستخبار:

الإخبار هو نقل الخطاب أو محتوى الخطاب بما يتضمنه ذلك النقل من سبل إبانة عنه، ولما كان الإخبار نقلاً للخطاب أو محتواه كان بذلك إخباراً عنه واعلاماً به، والإبلاغ حين يرتبط بالكلام يفهم منه حدوث علاقة بين متكلم ومخاطب يكون مصدرها أحدهما بفعل الخبر أو الاستخبار أو بحركة أو اشارة أو حال من الأحوال ترجع لأحدهما أو لكليهما أو لغيرهما لداع من الدواعي، ويفترض في هذه العلاقة أن تكون مبينة حتى يتمكن المتكلم من الافصاح عما في ذهنه ونفسه ممكناً مخاطبه من مراده"، (بجياوي: ٢٠١٤م: ٢٢) وقد ميز سبيري وولسون بين نوعين من المقاصد، هما: (سبيري وولسون: ٢٠١٦م: ١٠٧-١١٦).

الأول: القصد الإخباري: الذي يكمن في رغبة المتكلم في إبلاغ المخاطب المحتوى القضوي، وينظر التداوليون الى هذا النوع من المقاصد بوصفه قصداً لتوليد توجهات معينة لدى المخاطب تجاه قضايا معينة.

الثاني: القصد التواصلي: وهو أن يكون القصد الاخباري معروفاً ومعلوماً لدى المخاطب، فمجرد اخبار المخاطب بقصدك الإخباري لا يكفي تماماً لإنجاز عملية التواصل. ويبنى المتكلم عملية الإخبار على أساس المقاصد الكلامية القارة في ذهنه ونفسه، ومراجعة الرسائل الحربية تبين هذه المقاصد من خلال السياقات الواردة فيها، ومن صور الإخبار ما يقصد به التواصل بين المتراسلين ومنه قول أمير المؤمنين في رسالة الى جرير: "إني أخبرك عن نبأ من سرنا

إليه من جموح طلحة والزبير عند نكثهم بيعتهم وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف ... فاسأل عما بدا لك"، (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١٥) فكان قصد الإخبار هنا هو التواصل مع المخاطب، والاستخبار عن مستوى تفاعله مع الخبر الواصل له، فلم يكن ذكر الحدث التاريخي والفعل الذي قام به أمير المؤمنين تجاه طلحة والزبير مجرد سرد لخبر يراد به الإعلام، بل كان الذكر لإيصال معلومة للمخاطب ربما لم يكن على علم سابق بها، أو علم بها ولكن بطريقة مغلوطة القصد منه التأثير على جريب، ولما أخبر أمير المؤمنين، أكد على فعل التواصل بقوله "سأل ما بدا لك" ليزيل بهذا القول كل عملية استفهام كانت تدور في ذهن المخاطب أو الجماعة القريبة منه وليكون العمل اللغوي مقنعاً للمخاطب، ويحصل به الاقتناع وليس الإذعان للأوامر فحسب وهو من المقاصد العامة التي بني عليها الخطاب العلوي الشريف، فأمر المؤمنين لا يعتني بفعل الإذعان والإقرار من الآخر إن لم يكن على قناعة تامة، وهذا الفعل السلوكي يختزنه أمير المؤمنين في ذهنه ولا يفرق بين المخاطبين في ضرورة حصول فعل الاقتناع قبل الإقدام، بعيداً عن الترغيب أو تهيب.

وبالبحث في متون الرسائل نجد حضور قصد آخر من مقاصد الإخبار، وهو الإخبار من أجل التأثير في المخاطب وتغيير قناعاته أو سلوكه، من هذا ما ورد في رسالة معاوية لشرحبيل، والتي جاء فيها: " إن هذا الأمر الذي قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة، فسر في مدائن الشام، وناد فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه"، (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٥٠) فالأمر الصادر من معاوية الى شرحبيل، أخذ مأخذ الخبر لأنه يحمل فعلاً اعلامياً لم يكن المخاطب على علم به، وقد أضاف معلومة جديدة له والقصد منه التحريك لتحشيد الجماهير واخبارهم بأن أمير المؤمنين هو من قتل عثمان، وعليه يجب على الأمة أن تتحرك في سبيل الاقتصاص من القاتل. هذا الفعل الاخباري اتخذ طابع التسلسل الزمني والمكاني والخبري، فالخبر الصادر من معاوية وصل بعد مدة من الزمن الى شرحبيل، ثم انتقل من شرحبيل الى الجماعة التي آمنت بمعاوية ووقفت معه، وينتقل من مكان الى مكان. وهو بهذا يغير آلية نقل الخبر فبدأ الخبر بالقرطاس ثم انتقل الى العملية الشفاهية المباشرة، وهذه السلسلة من النقل الزماني والمكاني والخبري، كانت المقاصد وراءها هي تكوين جماعة تؤمن بما يؤمن المتكلم، تقبل ما يقبل وترفض ما يرفض. كل هذا القصد خلق تأثيراً سلوكياً في المتلقي، ولا يتطلب هذا التغيير تغييراً ذهنياً إقناعياً، فقصد المتكلم معاوية ليس اقناع المتلقي بقضيته بقدر ايجاد صف من المؤيدين المناصرين له وبأي صورة كانت سواء ترهيبة أم اغرائية أم إقناعية. وقد صار القصد التخاطبي هنا قصداً مزدوجاً، أي قصد اخبار محتوى معين، وقصد انجاز هذا القصد نتيجة معرفة المخاطب به.

وربما يراد من الإخبار التحذير، الذي هو فعل تواصل يرد منه أن يتواصل المخاطب مع المتكلم ويستجيب لما يعرضه عليه. من هذا ما ورد في رسالة أمير المؤمنين الى عبد الله بن عامر (ت٥٨هـ)، إذ قال: "إن خير الناس عند الله عزّ وجل أقومهم لله بالطاعة فيما له وعليه وأقولهم بالحق ولو كان مرأً، فإن الحق به قامت السماوات والأرض ولتكن سريرتك كعلانيتك"، (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٦٠) ويلتقي في فعل التحذير جانبان من جوانب التخاطب، هما الجانب التبليغيّ والجانب التهذيبيّ، فالمتكلم يصدر تحذيره للمخاطب؛ مبلغاً إياه بالعواقب وخواتم الأمور بأسلوب أخلاقي مهذب يتأطر بالمعرفة المسبقة للمخاطب بصدق قول المتكلم "أمير المؤمنين" ليسير الفعل اللغويّ على مبدأ التصديق الذي هو من مبادئ التخاطب الأساسية، وهو المبدأ الذي يتأسس على مطابقة القول للفعل، وتصديق العمل للكلام، وقد يترتب على هذا المبدأ أن "المتكلم متى تبين حقيقة قصده من قوله، أثمر عنده هذا التبين نتيجتين تقوم إحداهما في تعيّن وظيفته العملية أو قل مسؤوليته الأخلاقية، وتقوم النتيجة الثانية في صيانة قوله عن اللغو بجعله يعمل في إفادة المخاطب المعنى المقصود منه". (طه عبد الرحمن: ٢٠١٢م: ٢٥١)

إن فعل التحذير تضمن نصحاً وإرشاداً غير مبني على رغبة المخاطب وموافقته، فالمتكلم لم ينتظر موافقة المخاطب على النصح والتحذير بل صدر التحذير والإرشاد مباشرة من دوافع دينية أخلاقية، فتوحيد الباطن مع الظاهر قطع لمسارات النفاق والحقد والكراهة، وهي الصفات المذمومة ديناً وخلقاً.

٩- الاستدلال:

تمثل ساحة الحرب مجالاً رحباً لخلق الصراعات الكلامية والتي من صورها الرسالة، ومن الضرورة أن تحتوي الرسالة على قضايا يؤمن بها المتكلم ويدافع عن تحقيقها وأحياناً لا تتصف القضايا بطابع التوافق والمقبولية عند المتراسلين ممّا يحتاج المرسل عندئذ الى تأييد فحوى قضيته بأدلة غالباً ما تكون أدلة عقلية في مثل سياقات الحروب.

وينطوي الاستدلال على نشاط الانسان التأملي ليشمل العمليات الفكرية والذكاء العلمي، ويمكن عدّ أي ارتباط معرفي واع أو بديهي استدلالاً، وهو من الآليات التي اشتغل بها العلماء في التراث العربي الإسلامي؛ إذ وردت "أغلب نصوصهم وخطاباتهم مبنية بناء استدلالياً معتمدين في ذلك على أدوات وقواعد وضوابط عقلية، وأخرى نقلية من أجل إقامة الحجة لاثبات قضاياهم ودعواهم، فقد راحت مختلف العلوم العربية كأصول الفقه، وعلم الكلام، والنحو، والبلاغة توظف هذه الآلية من أجل بناء نصوصها ونتاج معرفتها". (خديجة كلانمة: ٢٠١٢م: ١٨٦)

وهو أحد الأنساق التي يعتمد عليها الخطاب الحجاجي؛ لأنه انجاز تسلسلات استنتاجية، داخل الخطاب، أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمثابة الحجج وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها. (العزاوي: ٢٠٠٦: ١٧)

والاستدلال نسق عقلي لا بدّ من حضوره في عرض الآراء والحجج، سواء كان الاستدلال عقلي منطقي أم نقلي. ومن صور الاستدلال الحاضرة في الرسائل الحربية ما ورد في رسالة أمير المؤمنين لمعاوية " أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمتمك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١٢٩). إن الفهم المنطقي للقضايا المعروضة في هذا النص تتشكل على صورة قياس منطقي يتلخص بالآتي:

- المقدمة الأولى: بيعة أمير المؤمنين ملزمة لكل المسلمين في البلاد الإسلامية.
- المقدمة الثانية: أهل الشام من المسلمين في بلاد الإسلام.
- النتيجة بيعة أمير المؤمنين ملزمة لأهل الشام.

هذا الاستدلال وإخراج النتيجة الذي تضمنه النص السابق كان مبني على حقائق واقعية فرضت نفسها في الجغرافية السياسية الإسلامية، فبعد أن صارت كلمة المسلمين أهل الحل والعقد على مبايعة أمير المؤمنين فليس لأحد الخروج على إجماع الأمة سواء قدّم بيعة مباشرة أم لم يقدم . إن الاستدلال الصادر من المرسل عن صدق قضيته، أخذ مأخذ الحجة على المرسل إليه، فلم يستطع إبطاله بأي دعوى، بل لم يستطع رده، ولكنه اعتمد أسلوباً آخر في محاولة تقليل تأثير الرسالة في القارئ أو السامع.

ومقاصد الاستدلال تتباين بحسب مراد المرسل وبحسب المحتوى القضوي المعروض في متن الرسالة؛ فبعد أن كان الاستدلال لتدعيم قضية المرسل والاحتجاج لها، نجد المرسل يستدل لإبطال حجة المدعي ومن ذلك ما ورد في رسالة أمير المؤمنين لمعاوية " وأما قولك أن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز فهات رجلاً من قريش الشام يُقبَل في الشورى أو تحل له الخلافة. فإن زعمت ذلك كذبك المهاجرون والأنصار"، (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٥٨)، وقد عرض المتكلم دليhle بصورة شرطية تتسجم مع إبطال حجة الآخر الذي يدعي امتلاكه حق الحكم والشرعية، والقياس الشرطي آلية من آليات إنتاج الخطاب يعرض فيها المتكلم قوله بطريقة السبر والتقسيم، فبدأ بعرض حجة الآخر "إن أهل الشام حكام على أهل الحجاز"، وإبطالها بصيغة الشرط " فهات رجلاً من قريش"، ويوظف الشرط توظيفاً اجتماعياً سياسياً هدفه إنهاء النزاع الحاصل بين الجيشين، فإن هذا القول سينتقل بصورة أو

أخرى الى الجيش الأموي وستصير الحجة معروفة لدى معظم الجيش إن لم يكن كلهم، فعسى أن تصير هذه الحجة سبباً في انهاء الصراع الدائر بين الفريقين، وكما قال الشاطبي "وليس فائدة التحاكم إلى الدليل إلا قطع النزاع ورفع الشغب" (الشاطبي: ١٩٩٧م: ٤ / ٢٤٨). وقد لاقت حجة معاوية ابطالاً شرطياً آخر وهو "كذب المهاجرون والأنصار" وهذا الابطال اعتمد أساساً على معرفة مسبقة بالحقائق التاريخية والاجتماعية والتي لا يستطيع أحد إنكارها أو تكذيبها، وإن كان معاوية نفسه، وقد نجح المتكلم في اختيار دليhle مما يعجز الخصم عن رده؛ ليصير دليلاً ناهضاً ومؤيداً لقضيته فإذا "كانت الدعوى لا بد لها من دليل، وكان الدليل عند الخصم متنازعاً فيه، فليس عنده دليل، فصار الإتيان به عبثاً، لا يفيد فائدة ولا يحصل مقصوداً، ومقصود المناظرة رد الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه، لأن رده بغير ما يعرفه من باب تكليف ما لا يطاق. فلا بدّ من رجوعهما إلى دليل يعرفه الخصم السائل معرفة الخصم المستدل". (الشاطبي: ١٩٩٧م: ٤ / ٢٤٧)

ويستدل أمير المؤمنين على أحقية مجاهدة المارقين في رسالته الى عامله مخنف ابن سليم (ت ٦٥ هـ)؛ إذ قال: "سلام عليك فيني أحمد الله اليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإن جهاد من صدف عن الحق رغبة عنه، وهبّ في نعاس العمى والضلال اختياراً له - فريضة على العارفين - إن الله يرضى عمّن أرضاه، ويسخط على من عصاه، وأنا قد هممنا بالمسير الى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفيء، وعطلوا الحدود وأماتوا الحق، وأظهروا في الأرض الفساد، واتخذوا الفاسدين وليجة من دون المؤمنين" (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١٠٤)، سار هذا النص مساراً إقناعياً لم تقف حدوده عند المرسل إليه؛ فليس هو غاية الخطاب؛ بل وظيفة الخطاب تكوين جيش من المؤيدين لخطوات أمير المؤمنين، وهي استراتيجية قصدتها أحداث تغييرات في أفكار المتلقين أو توجيهها، وتبنى عادة على "اقتراحات سابقة بشأن عناصر السياق خصوصاً المرسل اليه، والخطابات السابقة والخطابات المتوقعة" (الشهري: ٢٠٠٤: ٤٤٤).

ولم تكن الحجج المعروضة في النص غائبة عن ذهن المرسل إليه أو مخالفة للواقع المعيش في حياة المسلمين. فالمسلمين لم يرغب عن خلداهم أن أحق الناس للجهاد في سبيل الله هو أمير المؤمنين، وأن معاوية وجماعته كانوا أبعد الناس عن الالتزام بالأوامر والنواهي الدينية، ولم يراعوا الأموال العامة وأفسدوا في أرض الله وعطلوا الحدود، كل هذا من الحقائق المعروفة لدى المتلقي، ولكن احتاج التذكير بها أو إعادة التوجيه للمعلومات على سبيل الإقناع.

والمتكلم يثبت دعواه من خلال آليات استدلالية غير صورية وهي الآليات الحجاجية؛ لما تتميز به من فعالية جدلية تخرج عن صرامة البرهان وحسابيته الآلية، من خلال أخذها بالتفاضل والتراتب،

وأحياناً بالتناقض الذي لا يخرج عن حدود العقل، ولكنه يحصل بسببه الإقناع، عكس البرهان الذي قد يستوي دليhle ولا يحصل معه بالضرورة اقتناع المخاطب. (طه عبد الرحمن: ٢٠٠٠: ٦٥)

١٠- استعمال المغالطة للتأثير في المتلقي:

بالإمكان تحديد مصطلح المغالطة اللغوية بأنها: "الحجة التي تبدو في ظاهرها صحيحة، ولكنها غير ذلك في الحقيقة"، (توماس أ. سلوان: ٢٠١٦: ٧/٢)، وقدم الفيلسوف الانكليزي جون لوك تصوراً للحجج التي يستعملها المتكلم في المغالطات، فكانت على ثلاثة حجج: (توماس أ. سلوان: ٢٠١٦: ١٠/٢)

- حجة الالتجاء الى السلطة، ويلجأ اليها المتكلم حينما يفقد البينة والدليل؛ لذا سميت حجة مثبتة، وحينها لا يجرؤ المتلقي على رفض هذه الحجة لما تملكه السلطة من سطوة وقسوة.
- حجة الجهل، وتتمثل هذه الحجة بعدم قدرة المتلقي برد الحجة المرعبة لا لصدقها، بل لعجزه هو، فهو لم يجد دفاعاً ناجحاً لإثبات رايه.
- حجة الشخصية، تتأسس على التعرض لشخصية المتلقي والهجوم على صفاته الشخصية ووسمه بصفات كالغباء، أو الخداع، أو الغش.

وقد تجلّت مسالك المغالطة واضحة للقارئ في كثير من رسائل معاوية وأصحابه، نورد منها على سبيل المثال ما ورد في كتاب معاوية الى أهل المدينة: "إن علياً قتل عثمان. والدليل على ذلك مكان قتله منه، وإنما نطلب بدمه حتى يدفعوا قتله فقتلهم بكتاب الله، فإن دفعهم علي إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب. وأما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا على أمرنا هذا وانهضوا من ناحيتكم"، (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٦٣). يرتكز معاوية ابن أبي سفيان في كلامه هذا على ما يتمتع به من سلطة وسطوة بلغت ربوع الشام كافة، فيطالب بما يمتلك من هذه السلطة أهل المدينة بالوقوف معه للانتصار على علي ابن أبي طالب (عليه السلام)؛ مستعملاً قضية مقتل عثمان بن عفان ذريعة لذلك؛ متناسياً أن أهل المدينة أعلم بحقيقة هذه القضية؛ فهم عاصروا الواقعة وشاهدوها، فليس معاوية بأعرف بها منهم ولكنه حاول أن يغير قناعاتهم في سبيل انجاح مقصده، وتجبيش أهل المدينة على أمير المؤمنين، وهي المغالطة التي لم تتجح وكانت مكشوفة للمتلقين، والمغالطة الأخرى الواردة هي عدم طلبه للخلافة وهي مغالطة عمد لإدراجها في رسالته لأنه فقد البينة والدليل، فهو لا يحتكم الى مبدأ البينة والدليل في تصرفاته وعلاقاته مع الآخر، بل إن المبدأ السائد في تصرفاته وعلاقاته مع الآخر هو مبدأ السلطة والسطوة والسيطرة ، وقد

وضعهما بديلاً للدليل والبينة العقلان وهذا أساس المغالطة، " فيقع المرء في مغالطة الاحتكام الى السلطة عندما يعتقد بصدق قضية أو فكرة لا سند لها إلا سلطة قائلها" (مصطفى: ٢٠٠٨م: ٨٥). ولم يكن معاوية هنا يبحث عن اقناع المتلقي بقدر عنايته برضوخه لأمره والسير في ركابه، فهو يغالط المتلقي؛ ولا يعتني بصدق المقال وكذبه؛ ويتكئ على هذه المغالطة في سبيل تحقيق "النجاح في الأغراض الجمهوريّة، ولذلك لا يشعر أنّ حدود المغالطة التي يلج عوالمها يمكن أن تتعارض مع التصور الأخلاقيّ للشعر فالغاية تبرز الوسيلة، وشرف الغاية بنفي كل ريبة تقترن بالمغالطة في هذا المجال". (عصفور: ١٩٩٥: ٢٠١).

ومن هذا أيضاً ما ورد في رسالة معاوية الى عبد الله بن عمر (ت ٧٣هـ) من قوله: "أما بعد فإنه لم يكن أحد من قريش أحب إليّ أن يجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك. ثم ذكرت خذلك إياه وطعنك على أنصاره فتغيرت لك، وقد هون عليّ ذلك خلافاً على علي، ومحا عنك بعض ما كان منك، فأعنا-رحمك الله- على حق هذا الخليفة المظلوم". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٧١). فقد عمد معاوية في هذه الرسالة الى ما أسماه الفيلسوف الفرنسي جون لوك "حجة الشخصية" محاولاً التأثير على المرسل إليه؛ ليكسبه في جانبه في هذه المعركة، فقد ركز على قضيتين، الأولى: أن معاوية كان يرغب بأن يتسلم عبدالله بن عمر خلافة المسلمين بعد عثمان بن عفان، وهو الأمر الذي يستبطن مدحاً وتعظيماً لشخصيته، ودليل احترامه، ولكنه سرعان ما عدل عن هذا التعظيم بعد أن علم أن عبد الله كان من المعارضين لسياسة عثمان في المدينة. القضية الثانية: الخلاف بين أمير المؤمنين وعبد الله بن عمر وهو خلاف لا يعدو أن يكون أكثر من سحابة صيف، الأمر الذي جعل معاوية في آخر خطابه يتوسل المعونة ويعمد الى إثارة عاطفة عبد الله بالإشارة الى مظلومية الخليفة المقتول.

ونلاحظ أن هذه المغالطة تركزت في الأساس على ما يكتنزه عبد الله من صفات شخصية ومكانة اجتماعية وحاول المرسل أن يستفيد من هذه المكانة بكسبه الى جانبه في خروجه على أمير المؤمنين.

وقد عمد عمرو بن العاص (ت ٤٣هـ) الى استعمال مغالطة مشابهة لهذه حينما بعث جواباً عن رسالة أمير المؤمنين ورد فيها: " أما بعد فإن الذي فيه صلاحنا وألفة ذات بيننا أن تتيب الى الحق، وأن تجيب الى ما تدعون إليه من شورى فصبر الرجل منا نفسه على الحق، وعذره الناس بالمحاجة". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ١١١) فقد حاول عمرو أن يرتدي جلباب المصلح ويتمصص دور المخلص في سبيل الخروج أمام المسلمين بصورة الباحث عن صلاح الجماعة وحفظ بيضة الإسلام، فهو يجد طريقاً لصلاح الأمة ويعرضه على أمير المؤمنين لقبوله، موحياً الى السامع بأن ركون الإمام الى

كلامه وموافقته على دعواه فيه الصلاح، وهذا القول يحمل ضمناً مغالطة كبرى تتبين من العودة الى أصل رسالة أمير المؤمنين الذي ورد فيها: " لا تجارين معاوية في باطله، فإن معاوية غمض الناس وسفه الحق"، فمراد عمرو هو قلب جهة الحق بعد أن وصف أمير المؤمنين معاوية بالباطل فأراد أن يدخل المتلقي المسلم العادي بمتاهة المفاهيم؛ ليتساوى عنده الطرفان فلا يجد فرقاً بين نصر معاوية أو الوقوف مع أمير المؤمنين. وهنا نلاحظ أنه لا يمكننا تكوين معجم لغوي للفظ المغالطة؛ بل إن المتكلم هو الذي يجعل كلامه ذا معنى صادقاً من حيث الظاهر، ولكننا في حال البحث عن الحقائق المستتبطة في أقوالها نجد أن القول خال من الصدق وهو في مجمله سيق من أجل التأثير في قناعات المتلقي، فلو كانت العبارات نفسها قد صدرت من شخص غير عمرو لوجب علينا البحث مرة أخرى في السياقات المصاحبة لإنتاج الكلام؛ لنجد الكلام سيق على نحو المغالطة أم على الصدق.

ومن رسالة معاوية الى ابن عباس (ت٦٨هـ) أنه ورد فيها: " أما بعد فإنكم يا معشر بني هاشم لستم الى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان، حتى أنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه، واستعظامهما ما نيل منه، فإن يكن ذلك لسلطان بني أمية فقد وليها عدي وتيم، فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة. وقد وقع من الأمر ما قد ترى". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٤١٤) قصد معاوية في كلامه هنا الى مغالطة سلبية وهي تحقير الخصم والتتقيص من قدراته والتشكيك في كفاءته ومصادقته؛ فهو يتهم عليهم لعنتين؛ الأولى: أنهم من أعداء عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وهذا العداء "بحسب معاوية" ليس خصيصاً به وبجماعته، وقدّم حجة مغلوطة هي أنهم سكتوا حينما وليّ الأمر قبيلة عدي وتيم، وهي إشارة لخلافة أبي بكر (ت١٣هـ)، وعمر بن الخطاب (ت٢٣هـ)، فلما سكتم في أيام خلافتهم وأطعتم أمرهما فلم اليوم تعترضون على حكومة بني أمية، حتى وصل هذا الاعتراض الى قتل طلحة والزبير لا لسبب إلا لأنهم من أنصار عثمان بن عفان. نلاحظ أن هذا التدوين للوقائع التاريخية استعمل استعمالاً محرفاً من قبل المرسل، والوقائع التي عرضها هي:

- الإساءة الى أنصار عثمان بن عفان.
- قتل طلحة والزبير.
- طاعة أبي بكر وعمر بن الخطاب.

إن العودة الموجزة للوقائع التاريخية تكشف كسفاً بئناً عن أن هذا العرض للأدلة هو عرض غايته تحريف الدليل، وهو الأمر الذي لم ينجح مع المرسل إليه؛ لما يمتلكه من معرفة بالوقائع التاريخية وبحقيقة المرسل وهذا العمل من معاوية يجعله شخصاً "يقوم بتبليس الكذب صفة الصدق والباطل صفة الحق... فقوم حجاجه سبل تمويهية وتغليطية الهدف منها إبطال كل ما يبتغي المجيب حفظه

أو حفظ كل ما يستهدف السائل إبطاله عبر سوق الخصم إلى الكذب والباطل، وغالباً ما يستند في ذلك الى مسالك تقوم على التحريف والتلبيس والتعتيم والكتمان والكذب والمكر وغيرها من المسالك التي تيسر له تحصيل ما يروم اليه". (توماس أ. سلوان: ٢٠١٦: ٢/٨٢٠)

ومن رسالة معاوية الى أمير المؤمنين أنه ورد فيها: "هل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة، وصلاح للأمة، وحقن للدماء، وألفة للدين، وذهاب للضغائن والفتن أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضيان، أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك، فيحكمان بما في كتاب الله بيننا، فإنه خير لي ولك، وأقطع لهذه الفتن. فاتق الله فيما دعيت له وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله. والسلام". (ابن مزاحم: ١٩٩٠: ٤٩٣)

وقد مثل هذا القول من معاوية المغالطة اللغوية الكبرى التي استتبعها مغالطة أفعالية؛ فعلمية التحكيم التي حصلت بعد حين لم تكن سوى مغالطة فعلية بطلها مخادع وسادج: عمرو بن العاص المخادع الذي عرف كل فنون المغالطات والخداع، وأبو موسى الأشعري المؤمن السادج، الذي لا يجد في نفسه استفساراً عن مقاصد الأمراء وأفعال الحكام. وإذا تركنا هذه المغالطة الأفعالية وعدنا الى أساسها وهي المغالطة اللغوية نجد أن معاوية استعمل فيها أسلوب الاستفهام المستبطن للرجاء، ظاهراً طيبة وإيماناً عالياً في طلبه هذا. والسامع للمرة الأولى يأخذه العجب في كلامه معتقداً بصحة إيمانه وهذا أساس المغالطة إذ يظهر المتكلم عكس ما يستبطن، فما إن تجري الأمور بحسب ما خطط لها معاوية حتى تتكشف المقاصد المستبطنة للكلام، والتي أخفاها عن المرسل، وتتكشف حقيقة رغبته بأن يكسب الوقت؛ ليؤثر في الناس (المشاركين في القتال من كلا الطرفين)، وقد ساعده على تبني هذه الفكرة علمه بوجود من يرتجف قلبه في جيش أمير المؤمنين، علماً أنها مغالطة مفضوحة عند المرسل إليه؛ ولكن المرسل نجح في التأثير في تغيير سلوك جماعة من جيش الإمام، وأصروا على الرضوخ إلى هذه الدعوة التي كانت تبعاتها ونتائجها مأساوية، فتنشقت الأمة وانشق صف جيش الإمام بسببها.

١١ - الخاتمة:

- ١- أسهمت الرسائل في الكشف عن معتقدات المقاتلين في المعسكرين.
- ٢- مجمل الرسائل المسجلة في هذا الكتاب تمت بالمراسلة بين قادة الجيشين لاسيما أمير المؤمنين، ومعاوية، ونادراً ما كانت تصدر من الجنود إلى بعضهم؛ مما يكشف عن البنية الثقافية للعقلية الإسلامية في ذلك الوقت، فهي عقلية تجعل زمام الأمور والتخطيط بيد الزعيم أي كانت النتائج، وقد شدت عن هذه القاعدة الخوارج الذين عارضوا زعامة الإمام لأكثر من مرة.

- ٣- لم يقف سعي أصحاب الرسائل عند التأثير في قناعات المرسل إليه، بل تعداه إلى التأثير على السامعين الذين يصلهم فحوى الرسالة.
- ٤- لم تتجح كثير من الرسائل في تحقيق هدفها الإقناعي؛ لتمسك المخاطبين بقناعاتهم المسبقة واصرارهم على موقفهم وغياب الرغبة الملحة في تغيير الموقف المتخذ من قبلهم سلفاً.

المصادر:

- اتجاهات البحث اللساني، ميلاكايفيتش، ترجمة: الدكتورة. سعد مصلوح، الدكتور. وفاء كامل فايد، المجلس الثقافي الأعلى، ط٢، ٢٠٠٠م.
- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي الشهري، الكتاب الجديد، ط١، ٢٠٠٤م.
- الأسس الابدستولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبيويه، الدكتور. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط١، ٢٠٠٦م.
- الأصول دراسة ابدستولوجية للفكر العربي عند العرب، الدكتور. تمام حسان، دار الشؤون الثقافية، بغداد- العراق، ١٩٨٨م.
- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م.
- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن وهب (ت بعد ٢٩٢هـ)، تحقيق: عبد الأمير المهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، د.ت.
- التبالغ والتبالغية نحو نظرية تواصلية في التراث، رشيد يحيوي، كنوز المعرفة، الأردن، ٢٠١٤م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة باحثين، إعداد وتقديم: الدكتور. حافيط إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- الحجاج في الخطاب السياسي، د. عبد العالي قادا، دار كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٥م.
- ديوان الأعور الشني بشر بن منقذ (القرن الأول الهجري)، صنعة وتحقيق: الدكتور ضياء الدين الحيدري، مؤسسة المواهب، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- السياسة وسلطة اللغة، عبد السلام المسدي، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧م.
- شعر الزبيرقان بن بدر وعمرو بن الأهم، تحقيق: سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤م.
- عودة الى خطاب الحكاية جبرار جينيت، ترجمة: محمد معنصم، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م.
- فراند السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين، إبراهيم بن محمد الجويني الخراساني (ت ٧٢٢هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٠م.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدكتور. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠م.
- قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨م.

- الكامل في التاريخ، على بن محمد ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ) أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م.
 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.
 - اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط٣، ٢٠١٢م.
 - اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، ط١، ٢٠٠٦م.
 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي (ت ٧٧٠ هـ)، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف - القاهرة ، (د.ت).
 - معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت ١٢٢٨ هـ)، دار صادر، ١٩٩٣م.
 - معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
 - المعنى خارج النص - أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، فاطمة الشيدي، دار نينوى، دمشق، ٢٠١١م.
 - المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، الدكتور. محمد محمد يونس علي، دار المدى الإسلامي ٢٠٠٧م.
 - المغالطات المنطقية، عادل مصطفى، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٨م.
 - مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي جابر عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ط٥، ١٩٩٥م.
 - مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
 - المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، أبو أحمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، القاهرة، مكتبة الجندي، ١٩٦٨م.
 - الموافقات في أصول الشريعة، أبو اسحاق الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ١٩٩٧م.
 - موسوعة البلاغة، توماس أ. سلوان، ترجمة: نخبة من المترجمين، إشراف: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م.
 - نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون لانجشو أوستن، ترجمة: عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، ط١، ١٩٩١م.
 - نظرية الصلة أو المناسبة سبيرير وولسون، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله، دار الكتاب الجديد، لبنان، ٢٠١٦م.
 - وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقرّي (ت ٢١٢ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجمل، بيروت ١٩٩٠م.
- البحوث المنشورة في الدوريات والمجلات:**
- آليات الاستدلال الحجاجي في منهاج البلاغة وسراج الأدياء لحازم القرطاجني (بحث) خديجة كلاتمة، مجلة مخبر اللغة العربية ، جامعة محمد خيضر - بسكرة، العدد الثامن، ٢٠١٢م.
 - نظرية جون سيرل في القصدية، الدكتور. صلاح إسماعيل، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية (٢٧)، مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.